صناعة الزجاج تقليد مستمر في بلدة ارمناز

الدكتور محمود حريتاني

ينسب بعض المؤرخين الكلاسيكيين ، اكتشاف الزجاج الى الكنعانيين ، كما ينسب الاكتشاف التلقائي لمادة الزجاج ، الى تجار مادة النطرون ، الذين نزلوا الشاطىء السوري قرب عكا ، ففي اثناء قيامهم بما يلزم لاعداد طعامهم . لم يعثروا على احجار لاستخدامها كمساند للقدر ، فاضطروا الى استخدام كتل النطرون لهذه الغاية ، ولكن نترات البوتاس ما لبثت ان انصهرت بتأثير النار وامتزجت برمل الشاطىء مما ادى الى ظهور سائل شفاف ـ فكان ذلك بداية فجر اكتشاف الزجاج وصناعته .

قد يكون هذا الاكتشاف حقيقة ام اسطورة ، لكن الروايات التاريخية ـ اتفقت على ايراده . حتى ان شيوخ صناع الزجاج في بلدةارمناز يوردونها فينسبونها الى تجار جاءو الى بلدتهم ، وكان ما كان . وهم يبرهنون على ذلك بوجود تربة رملية خاصة بجوارهم في « ارض الوطا » اي المنخفضة . ناعمة وقاسية جداً ومثلها تربة توجد في منطقتي يبرود وجيرود يستخرجون منها الرمل الناعم .

لقد كانت صناعة الزجاج معروفة في التاريخ قبل الفينقيين ، في بلاد ما بين النهرين ومصر ، ثم بلاد فارس وايا كان مصدر هذه الصناعة ، فانها ازدهرت وتقدمت في سورية ، ومنها انتقلت الى البندقية ثم الى العالم الغربي .

ولعل تكيف الزجاج وجمال الفن بلغ في سورية ، مدى لم يبلغه في اية بلاد اخرى . فقد كان الزجاج الذي يصنع فيها اجمل من الزجاج الذي يصنع في اي بلد من بلاد العالم . وقد كان العصر الذهبي لتلك الصناعة في سورية في نهاية القرن الثاني عشر ، وامتد الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وانتهى تقريباً في عام ١٤٠٠م لدى استيلاء تيمورلنك على دمشق ونهبها . فقد كانت مدن دمشق وحلب وانطاكية والرقة وصور ـ شهادات المؤرخين والرحالة الشرقيين والغربيين ـ تزخر بمعامل الزجاج التي تصنع أنفس الأواني التي تقدم الى سلاطين سورية ومصر وامرائهم وحاشيتهم ، والى ملوك اليمن والحجاج الغربيين . ويعتبر المؤرخ فيليب حتى ، شمالي سورية ، مركزاً هاماً لفن الطلاء الزجاجي ، ومنها انتلقت الى كريت ثم اوروبة ، ويعدد اشهر المعامل التي اشتهرت في حلب ودمشق والخليل ، بينما اشتهرت صور بالزجاج النقي .

يحدثنا المؤرخ البيروني بان الزجاج كان يصنع في سورية من الرمل مخلوطاً مع مادة اخرى وهي « القلي » فتسخن هذه المواد على النار وتصبح صافية ، ومن ثم تبرد فتصير صلبة . ويصف لنا اختلاف الرمل وتأثيره في صنع الزجاج ... ولا يحدثنا البيروني عن مادة الكلس الهامة . ولكن يستدل من تحليل القطع الزجاجية الباقية على ان الصناع كانوا يستعملون الكلس ايضاً . كما ان المادة السيليسية التي استعملت فيما بعد في مدينة حلب كانت تتخذ من الحصى النهري الموجود بكثرة على ضفاف الفرات . وهذا يعتبر من اهم الاسباب لانتعاش هذه الصناعة في شمال سورية .

لقد اشتهرت قبل عهد الامويين بصنع انواع كثيرة من الزجاج ، منها الزجاج المعروف باسم « الفينقي » ولا سيما النوع المسمى بـ « الفسيفساء الزجاجية »

[لما بنى الوليد بن عبد الملك مسجد بني امية في دمشق سنة ٧٠٥ م زين داخل الحرم واقواس الصحن وجدران الاروقة بالفسيفساء الزجاجية] . وقد اكتشف خلال التنقيب في سورية ، اثار زجاجية ذات اشكال والوان وزخارف لها جمال فني رائع ، حفظ قسم كبير منها في المتحف الوطني بدمشق والمتاحف الاخرى ، وتعود هذه الاكتشافات الى ما قبل العهد الاموي . فتثبت استمرار الانتاج الفني السوري في هذا المضمار خلال عصور متعاقبة .

كما ان صناعة الزجاج تحتاج الى معرفة العناصر الاولى مع تقدير الكميات اللازمة ونسبها ، وانتخاب المواد النقية منها والمزينة بلون ـ والملونة حسب الحاجة ثم معرفة الحرارة اللازمة للانصهار ، والادوات الضرورية ـ عدا الدقة الشديدة في العمل ، والمهارة الفائقة في التكييف . مع سرعة الابرام والزخرفة . حتى اننا لا نبالغ اذا قلنا ـ انه ليس هناك صناعة تحتاج الى ما تحتاجه هذه الصناعة من الدقة والاتقان : فطريقة الكبس مثلا كانت مستعملة ، اذ كان قرص الزجاج يؤخذ قبل تبريده ، ويكبس بآلات خاصة ليصبح مقعراً وكان يناقش على الأواني مثلا نقوش ناعمة . ولا شك ان التزيينات كانت موجودة في القالب المعد للكبس . اما القوارير والمصابيح ، فتصنع على طريقة النفخ ويستدل من ذلك على أن الصناع عرفوا القوالب ، كما انهم تميزوا بمهارة يدوية ، من ذلك ما نجده على بعض المصابيح التي كانت تعلق في الجوامع ، فقد كانت تصنع قضبان خاصة توضع على المصابيح بعد التبريد قليلا . وهنا لا بد من مهارة زائدة ، لأن بعض الصناع في الغرب جربوا تقليد ذلك ، فلم يفلحوا .

كما ان طريقة النفخ هذه كانت معروفة في البلاد الاسلامية ، وانتقلت بعد ذلك الى اوروبة ، وظلت هناك الى قبيل اختراع الآلات الحديثة .

وحتى في العصور الحديثة ، استمر العمل بالطريقة القديمة . واضيف الى ذلك اعادة صهر الزجاج مرة ثانية ، واتخاذ القوالب اللازمة . ولم يقف الوضع على هذا المنوال ، وعاد صنع الزجاج من الرمل ، وقد نجح ذلك نجاحاً لا بأس ، كذلك حدث تجديد في عمل القوالب والمحافظة على الاشكال ، ولم يجد الا في نوع الزجاج المستخدم للزينة فقط .

ان صناعة الزجاج التقليدية . بعد انتشارها السابق كما رأينا ، بقيت مستمرة في سورية وخاصة في بلدة ارمناز ، حيث اتيح لاهالي هذه البلدة التي ترقد في سفح جبل الأعلى ، وتمتاز بسهولها الواسعة ، وبزراعة الزيتون وعصره ، وصناعة الفخار ، ان تؤمن لهم المواد الاولية اللازمة لصناعة الزجاج والابداع فيها .

فقد ساعد على انتشار صناعة الزجاج ، مهارة ساكنيها واختصاصهم الذي لازال معهم حتى اليوم . فجميع صناع الزجاج في سورية هم من سكان ارمناز ، وان مادة « البيرين » أو « العرجون » وهي من مخلفات عصر الزيتون ، متوفرة تساعد على تأمين المحروقات للافران . وقد كان في ارمناز اكثر من عشرين فرنا لصناعة الزجاج وتعمل فيها اكثر من عشرين عائلة . وقد شاركت المراة في أعمال متنوعة في هذه الصناعة عدا اعمال « النفخ » فهي تتطلب جهدا كبيرا ومع ذلك فان « ام كمال » حاولت النفخ ، بعد ان ساعدت في أعمال النقل والرفع .

وقد طارت شهرة هؤلاء الصناع في ارجاء الامبراطورية العثمانية ووصلت أعمالهم الى قصور السلاطين والأمراء والولاة . وحدث أن استقدم السلطان عبد الحميد الثاني في أواخر القرن الماضي اثنين منهم وانعم عليهم بالهدايا وبرواتب مدى الحياة تقديرا لجهودهم في هذه الصناعة الفنية .

انتقل صناع الزجاج من ارمناز الى جميع اقطار العالم العربي ، ولاتزال دراسات هؤلاء في قطر حتى اليوم شاهدة على براعتهم وحسن صناعتهم الفنية ، وعدد كبير منهم لايزال يعمل في المصانع الحديثة .

لقد اصاب هذه الصناعة فترات انحطاط ، كانت تتجاوزها ، واهم هذه الفترات كان في عام ١٩٤٩ م ، حين اصاب الصقيع اشجار الزيتون فقضى على قسم كبير منها ، فاضطر الاهالي للهجر مؤقتا ، وفي عهد

الانتداب الفرنسي كما في فترة مابعد الاستقلال ، بدأ استيراد الزجاج الاجنبي الذي زاحم هذه الصناعة فادى الى انحطاطها .

أما فترات الازدهار فكانت قليلة في العهود الحديثة نراها مزدهرة حين تقفل الحدود في وجه الصناعة الاجنبية كما حدث خلال الحرب العالمية الثانية ، ويضطر السكان لاستعمال المنتجات المحلية . كما تزدهر في بعض المواسم حين يقوم السكان بتموين بعض الاغذية لفصل الشتاء والتي تحفظ عادة في الاواني الزجاجية .

واليوم لم تبق هذه الصناعة في الشرق العربي وفي بلاد الشام على ما كانت عليه قبلا ، بل انها انحطت بتمادي الزمن ، اسوة بباقي الصناعات التقليدية والفنون القديمة ، واصبحت محصورة باناس فقراء يقنعون بالكفاف ، وبمعامل تقليدية صغيرة ، تقام في جانب من المدينة ، او باسواق المهن التقليدية التي تقام برعاية وزارة السياحة والتي ترسل صناعها احيانا لمعارضها التي تقام في الخارج . او ان تدفق الصناعة الاجنبية يقضي عليها ، وخاصة امام غياب الحماية الاقتصادية .

نحن نامل ان تعود صناعة الزجاج الى ازدهارها في شرقنا العربي موطنها الاول ، وان يمارس الاحفاد مهنة الاجداد ، وان يبدع المختصون روائع فنية جميلة ، وان يستمر المسؤولون والمواطنون في تشجيع هذه الصناعة وازدهارها ، وان يؤسس متحف خاص للزجاج تعرض فيه روائع هذ الصناعة بشكل يعطي الزائر لمحة وافية عن تطور صناعة الزجاج واستمرارها حتى يومنا هذا .